مرسلات مع الريح

أرسطوقراطية الوضاعة

للأستاذ إسماعيل مظهر

قال أرسطوقراطيس الروى : تكليف النفس ما ليس من طبعها ، دخول على الناس بخدعة ما ينبغى المرء أن يسكن إليها . وإرسال النفس على سجيتها تقرير لواقع الطبع ومسايرة لحقيقة الأشياء . فاختر لنفسك أمراً : فإما أن تعايش الناس صورة مزوَّرة على الطبيعة ، وإما أن تعايشهم صورة حقيقية لما بثَّت الطبيعة فى تضاعيفك من عناصرها . فإذا اخترت الأولى فأنت منافق . وإذا اخترت الثانية فأنت صريح النسب إلى الفضيلة .

قرأت هذه الكلمات . أقرأنيها رجل أمّى لم يفتح كتاباً غير كتاب الدنيا ؛ ولا عرف صحيفة إلا صحيفة الأيام . رمته الدنيا بالفقر . والفقر ، كما يقول الإنجليز ، إذا نقر على الباب قفز الحب من النافذة . ورمته مع الفقر بالبغضاء : يحملها له أهله وأبناؤه وذوو قرباه . ومع البغضاء رمته بالحقد . الحقد الذى يأكل صدره على كل من جادت عليه الدنيا بشىء من نعائمها

رزأه أحد أقاربه الأغنياء فى شىء من ماله القليل ، أخذه وأنكره عليه . فراح يستنصر آخر منهم تحمّت نفسه بمرضين : كراهية البشر ، وتكلف العظمة ، ومعهما انتحل الأرسطوقراطية ؛ ولكنها أرسطوقراطية الوضاعة . وكان وقوعه على هذا المُثُل حلقة فى سلسلة مصائبه

هو إنسان إذا طرق بابه إنسان امتقع وجهه ، وابيضت خرطومته من النكد والهم ؛ فجلس إليه يعلو صدره ثم يهبط كأنه كير حداد . وتكلف الأدب تكلفاً ينم عن سوء أدبه ؛ وتكلف الكلام ، فتحس وهو يتكلم كأنما صدره مرجل يغلى ، والكلمات تَهْدِرُ ما فى ذلك المرجل الثائر . قد يلتفت إليك إذا هو أراد أن يبالغ فى إيلامك ، وقد ينأى عنك بجانبه إذا هو أراد ملاطفتك . ذلك بأنه إذا التفت إليك فكى يريك الحقد مجسماً فى ملامحه ، والكراهية مرسومة فى محياه . وإذا نأى عنك فكى يخفى عنك هذه المعانى المرتسمة فى وجهه . فكأنه بذلك يمنُّ عليك ويشفق بك . وقد يبدؤك الكلام ؛ فإذا كان هو البادىء فطامتك عظمى ، ومصيبتك سوداء ، ويومك أنكد الأيام ، وساعتك أنحس الساعات ، ورُهنتك القيامة ، نُصِبَ ميزانها وبدأ الحساب

هيه ... كيف عرفت بيتى ؟ تكلم ...

ويحدجك بنظرة ، تتمنى لو أن الأرض تفور بك ، أو يُفتح لك فوَّهة من فوَّهات جهنم تلتقفك ، قبل أن تستقر معانى تلك النظرة فى نفسك . فإن كل معنى من معانيها رمح يستقر فى قلبك فينزفه ، وفأس محدودة تنزل على عنقك فتفصله عن جسدك .

قد يجود عليك حرج الموقف بكلمة ، ولكن الغالب أن تَنفصَّ فلا تتكلم . فإما أن تبقى ساكتاً والعرق يتصبب من جبينك ، وإما أن تتحفز للقيام فراراً من سوء ما أنت فيه . فإذا ارتج عليك وثبتَ فى مكانك ، انفتحت شفتاه المريضتان عن ابتسامة تترجم لك عن قوله : أكرهُ البشر يا ابن « آدم » ، فاليك يُقضى »

العلمي العربى فى دمشق . وبالرغم من أنه نشر عدة دراسات باللغة الإنجليزية ذات قيمة عن التاريخ الإسلامى وعن الدين الإسلامي فإنه سيذكر بالخير لطبعاته العديدة وترجماته لأمهات الأدب العربى ، وربما كان خير أولئك طبعته الفائقة لمعجم الأدباء لياقوت . وقد نشر أيضاً رسائل أبى العلاء ، ومحاضرات التنوخى ، ومختصر ابن مسكويه

أما أولئك الذين لا يزالون بين ظهرانينا فلن نتكلم عنهم ، لأن الكلام سابق لأوانه . وأعمال علماء كنكلسون وجب وستورى وكثيرين غيرهم ممن يخرجون آثاراً مهمة لن يبت فيها من وجهة النقد إلا الأجيال المقبلة . وفى خلال ذلك يمكن القطع بالقول واثقين أن سيرة الدراسات العربية فى انجلترا — التى سبق أن تكلمنا عن تطورها فى خلال العصور السابقة — لا تزال قوية الحيوية . ولعلها تستمر فى الازدهار

عبد الوهاب عزام

أما إذا ساعدك الحظ وحملتك رجلاك فقمت ، فإن يدك معصورة في يده ، وذراعك مهتزة كأنها القصبة المنخورة ، ليشعرك أنه انتصر وآذى الإنسانية وانتقم منها في ذاتك ، وفتك بأبناء « آدم » ومثّل بهم في شخصك ، ولكنه انتصار أشبه بانتصار الخراب على العمران ، كما يقول سير ولتر سكوت . غير أنه هنا خراب النفس ، يستقوى ويستلئم ، منتهزاً له فرصاً من نكد الدنيا

وسألته : ثم ماذا يا شيخ محمود ؟ قال : لا شيء ، إلا أن هذا الإنسان لِدُنوّ مكانته في الأولى ورفعته في الثانية ، أُصيبَ بمرضين هما ما ذكرت : إنسان نشأ في الحضيض ، دَرَج على التراب أول ما دَرَج ، ولبس الأسمال أول ما لبس ، وعاشر السفهاء والذؤبان أول ما عاشر ، ونام عنه القدر ، فلفّ ودار ، ثم تسلق حائط المجد ، فأصبح شيئاً ما في دنيا مجهولة ، أشبه شيء بالبقعة الخراب في المصوّر الجغرافي ، فحقد على البشر لأنه نشأ من أدناهم مكاناً وأرذلهم موضعاً ، ثم أراد أن يُعمّي على سوء مَنشئه ، فتكلف أشياء ليست من طبعه ، فطفى على الناس كِبراً والناس — يا أخي — لا يعاملون أمثاله بالحكمة النبوية الكريمة : (التكبر على أهل الكبر صدقة)

وأطرق الشيخ محمود هنيهة ، ثم نظر إليّ بعينيه الواسعتين وسأل : أليس الذي وضع مبدأ الأرسطقراطية هو أرسطوقراطيس الرومي ؟ قلت : كلا إنك واهم ، وليس من الروم من هذا اسمه ، وإنما هو مبدأ اعتنقه بعض مقاديم اللصوص في الأزمان القديمة ، وكان منهم قتلة وقطاع طرق وقراصنة ، ثم قلّدهم فيه لصوص آخرون هم أشد منهم غباء ، وأقل إقداماً ، فانحدر إلينا بعض المقلدين ، ولكنهم بيننا كالأحياء البائدة التي حفظت الطبيعة هيا كلها في طبقات الأرض ، وليس لنا منها إلا الصورة ؛ أما الحقيقة ، فقد انحدرت في جوف الزمان

فأطرق الشيخ محمود إطراقة ثانية يتأمل كلامي ، وحبّات مسبحته تتساقط ، فتحدث ذلك النقر المنتظم الذي يمثّل تتابع فكراته وتأملاته ، ثم ما لبث أن فاضت عيناه مرسلتين دموعاً تتراءى على يديه ، كأنها الندى البارد على وريقات الخريف

اسماعيل مظهر

حالياً

معرض عام لأحدث

أزياء فصل الشتاء

عند

شيكوريل

سجل تجاري نمرة ٢٦٤٢٦